

العرب والحضارة الإنسانية

الدكتور محمد معروف الدواليبي

د - بل جزم علماء الآثار أخيراً اعتماداً على دراساتهم العلمية في السنوات الأخيرة في البلاد العربية ، وذهبوا إلى أبعد من ذلك وقالوا : استطاعت الأبحاث الأثرية أن تمد خمس موجات منها ، وأن تؤكد أن ، آخرها وأقواها كانت موجة العرب المسلمين قبل أربعة عشر قرناً ، وأنه لا ريب قد سبق هذه الهجرات العربية التاريخية الخمس هجرات عربية قديمة أخرى قبل التاريخ : امتدت على الأفريقية الشمالية والبلقان وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وإيرلندا وبلاد الشمال (2) ، بل ذهبت مجلة « اللسان العربي » في العدد الثالث منها الصادر في شهر آب من سنة 1965 ، وفي الصفحة 130 إلى ما يدل على أن القرطاجيين الكنعانيين - البونيين - قد وصلوا إلى البرازيل في خط هجرتهم القديمة في مطالع التاريخ ، وهذا ما قد أثبتته البحوث العلمية الحديثة : من وصول العرب إلى أمريكا في مطالع العهد التاريخية (3) .

والمشكلة التي أترضت هذا الجزم هي :

أ - إذا كانت الحضارة الإنسانية الأم إنما انطلقت من جزيرة العرب .

لقد استقر الرأي العلمي اليوم عند مؤرخي الحضارات القديمة على أن الحضارة الإنسانية الأم التي نشأت فيما قبل التاريخ إنما هي حضارة « مثلث الحضارة القديمة » كما سماه جورج شفاينفورت Georges Schweinfurth ويعني به اليمن وحضرموت على رأس المثلث ، ووادي النيل في مصر في أحد ساقه ، وأراضي الرافدين في العراق في الساق الثاني ، وما بين هذين الساقين في بلاد الشام (1) في قاعدة المثلث .

كما استقر الرأي العلمي على أن هذه الشعوب كلها :

أ - ترجع إلى أصول عربية لا شك فيها .

ب - وأنها نزحت تحت ضغط عوارض الطبيعة في جنوبي الجزيرة العربية عندما اشتد جفافها وضاعت عن أهلها .

ج - وأن هذه الشعوب خرجت إلى مناطق هجرتها متحضرة ومالكة لناصية الحضارة ، ولذلك تشابهت حضاراتها في أصولها .

(1) كلمة « الشام » تعني بلاد الشمال من شبه الجزيرة العربية ، وهي تشمل اليوم ما هو معروف بفلسطين والأردن وسوريا ولبنان .

(2) « مجلة الحوليات الأثرية السورية » ، المجلد السابع سنة 1957 ، الصفحة 4 ، الدكتور سليم عبد الحق مدير الآثار ؛ وكتاب « الأيتروسك في غربنا وفي أصولنا الفرنسية » لمؤلفه الفرنسي « هيلبردو بارانتون » Les Etrusques en notre Occident et nos origines françaises .

طبع باريس سنة 1946 ، المكتبة الشرقية والأمريكية لصاحبها « ميرون نوف G. P. Maisonneuve » الصفحة 1 ، وكتابنا « قلعة طروادة التاريخية » طبع بيروت سنة 1964 ، مكتبة لبنان ، الصفحات 54 ، 56 ، 61 ، 71 .

(3) انظر كتابنا « المدخل إلى التاريخ العام للقانون » الطبعة الثانية ، طبع دار الفكر بدمشق سنة 1963 ، الصفحة 541 .

ب - وإذا كانت كلمة « العرب » ومادتها كما جاءت في اللغة العبرانية السامية إنما تدل فقط على الصحراء والجفاف والبدو (1) .

ج - وإذا كانت الحضارة لا يمكن أن تنشأ في صحراء جافة ، فكيف والحال كما ذكرنا يمكن الجزم بنشوء الحضارة الإنسانية الأم في جزيرة العرب الصحراوية الجافة ؟ ، فإن هذا مما يتنافى مع شروط الحضارة .

وللجواب على ذلك لابد من الإشارة إلى البحوث العلمية الحديثة الجازمة التالية :

أولاً - نظرية البحالة « كيتاني » حول أنواع جزيرة العرب فيما قبل التاريخ ، وأنها كانت أجواء مطيرة ، وأن أرضها كانت ممثلة بالأنهار .

ثانياً - معنى كلمة « العرب » ومادتها في اللغة العربية الفصحى المؤيدة لذلك .

ثالثاً - بطلان مزاعم المبرانيين فيما سجلوه في كتب لغتهم من معنى لكلمة « العرب » ومادتها : من أنها تعني الصحراء والجفاف والبدو .

رابعاً - نصوص من التاريخ القديم الدالة على رطوبة الجزيرة العربية فيما قبل التاريخ .

خامساً - نصوص القرآن الكريم عن أنسواء الجزيرة المطيرة في عهد العرب البائدة ، وكثرة الأنهار في أراضيها .

سادساً - وأخيراً نصوص الحديث النبوي في ذلك أيضاً .

نظرية البحالة كيتاني Ceatani

لقد دلت البحوث والدراسات الحديثة التي قام بها السياح والطعام من بلاد العرب على أن تغيراً كبيراً قد طرأ على جوها ، وأن هذا الجفاف الذي يكتنف هذه البلاد في أزماننا لم يكن على النحو الذي نعرفه في العصور التي سبقت الإسلام كثيراً (2) .

وكان للبحالة « كيتاني Ceatani » الفضل في لفت أنظار العلماء إلى هذه الظاهرة الهامة : ظاهرة التغير الذي طرأ على جو بلاد العرب ، والجفاف الذي حل بها في أواخر الدورة الجليدية الرابعة الأخيرة .

ففي الوقت الذي كانت فيه معظم النواحي الأدبية وشمال آسية تغطي الثلوج أرضها ، كانت جزيرة العرب ذات جو معتدل ، وأمطار غزيرة ، وأشجار وزروع .. ثم أخذ الجو يتغير في بلاد العرب ، فنقذ الجو رطوبته ، وسارت البلاد فيها بصورة مستمرة وبطيئة نحو الجفاف منذ أكثر من أربعة عشر ألف سنة ، فأثر ذلك بالطبع في حياة سكانها وفي حياة حيواناتها ونباتاتها : فانقرض ما لم يتمكن من تكيف نفسه مع المحيط الجديد ، وظهرت الحاجة إلى الهجرات ، فكانت الهجرات التي نتحدث عنها الآن ، وخاصة بعد أن جفت أنهار الجزيرة وتركنا آثارها وهي الأدبية ، وقد كان بعضها أنهاراً عظيمة في وقت من الأوقات (3) .

وقد تصور « كيتاني » بلاد العرب في الدورة الجليدية الأخيرة جنة بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة ، وكانت سبباً في رسم تلك الصورة البدعية في مخيلة كتاب التوراه من « جنة عدن » ، وأن جنة عدن المذكورة في العهد القديم هي هذه الجنة التي كانت في نظر « كيتاني » في داخل بلاد العرب (4) ، والتي يقول عنها في الجملة : أنها بلاد كانت كثيرة الأمطار ، وكثيرة الأنهار ، وكثيرة الأشجار .

ويؤيد هذه البحوث العلمية أن كلمة « العرب » وجميع مادتها ومشتقاتها إنما تدل :

— على المياه الكثيرة ، الصافية ، الشديدة الجريان .

— أو على الانس وعلى الصفاء الملازمين للمياه الكثيرة الصافية .

وهكذا فإننا نورد فيما يلي موجزاً عن هذه المعاني في معاجم اللغة العربية :

- 1 تاريخ العرب ، لجواد علي ، الجزء الأول طبع بغداد سنة 1951 ، الصفحة 173 ، وكذلك تاريخ العرب مطول ، ليليب حتي ، الجزء الأول ، طبع بيروت سنة 1958 ، الصفحة 53 .
- 2 تاريخ العرب لجواد علي ، الجزء الأول ، الصفحة 97 ، طبع بغداد سنة 1951 .
- 3 تاريخ العرب السابق ، الجزء الأول ، الصفحات 158 - 159 .
- 4 نفس المرجع السابق ، الصفحة 159 .

بطلان مزاعم العبرانيين

لقد زعم المستشرقون اليهود بأن معنى كلمة « العرب » ومادتها في اللغة العبرانية إنما يعني في الأصل « الجفاف والصحراء والبدو » (2) ، وأن كلمة « عرب » مأخوذة من مادة « عرب » بمعنى « أمحل أو أجذب » في كثير من اللغات السامية ، وأن صيغة « عرابة أو عربية » العبرانية استعملت اسماً للأرض القفر (3) .

ولنا على ما وصل إليه المستشرقون في مصادرهم اليهودية المزعومة ملاحظات أساسية أهمها ما يلي :

أولاً - أعمال هؤلاء الباحثين لما جاء في أهم اللغات السامية اليوم وهي اللغة العربية والتي يحمل أصحابها وحدهم اسم « العرب » ، وهو أعمال غير مفتقر ولا يدل على حسن قصد ، خاصة وأن معنى المادة في اللغة العربية جاء مخالفاً تمام المخالفة لما جاء في اللغة العبرانية ، وأن موضوع المخالفة متعلق ببلاد اللغة العربية ، ولا يجوز الحكم على معاني كلماتها الأساسية بمعان مستوردة من لغة غير عربية .

ثانياً - أن هذا الخلاف الكبير المتناقض فيما بين اللغتين العبرانية والعربية في معنى كلمة « عرب » يوجب على الأقل لفت النظر إليه ، وإيجاب الأخذ بالمعنى الثابت عند أهل اللغة العربية لا عند أصحاب اللغة غير العربية ، ثم متابعة البحث لمعرفة السبب في هذا التباين المتناقض ، ما دامت اللغتان ساميتان ، والكلمة كلمة أساسية في اللغة العربية وفي تاريخها وتاريخ بلادها ، وهذا ما لم يفعله بكل أسف !

ثالثاً - أعمالهم الإخبار التي وردت في كتب اليونان والرومان وغيرها من النصوص القديمة ، وكذلك ما نقل عن المصريين القدماء (4) ، وكلها كانت تقول بوجود أنهار طويلة في بلاد العرب ، وبوجود أخشاب ضخمة فيها ، وبأنها « أرض الله » كما سماها المصريون لوفرة خيراتها ونتاج أشجارها من البهار والتوابل ، رغم أن كتب الإخبار القديمة في ذلك متوفرة

— « العربية » النهر الشديد الجري ، وجميعها « عربات » . وما كان المكان ليصلح منزلاً للقوم إلا إذا كان فيه ماء ، ولذلك كثرت الأمكنة التي حملت في جزيرة العرب اسم « عربية » مثل باحة إسماعيل في مكة ، فقد سميت « عربية » لوجود ماء زمزم فيها ، وهكذا لم تلبث صيغة الجمع لكلمة « عربية » أي عربات أن أصبحت علماً في اللغات العربية القديمة على مهد العرب في جزيرتهم لكثرة المياه والأنهار فيها ، وإلى هذا الاسم نسبوا وسموا عرباً باسم بلدهم « العربات » ولا لمعنى « البداوة والجفاف والصحراء » كما نقل عن العبرانيين (1) .

— و « العربات » سفن رواكد كانت على مياه دجلة .

— و « العرب » الماء الكثير الصافي .

— و « والأعراب » الذين يرتادون الكلا ويتبعون مساقط الغيث ومظان المياه ، لا مناطق الجفاف والصحراء .

— و « التعريب » الاكثار من شرب الماء الصافي

— و « عرب البئر » كثر ماؤها .

— و « امرب بحجته » إذا افصح بها حتى عبرت عما يريد ، وكأنها أصبحت كالماء الصافي الذي لا يخفي ما فيه .

— و « امرأة عروب » أي متحبة إلى زوجها ، وذلك لصفاء مزاجها كما هو شأن الماء الصافي .

— و « عربت المعدة » أي فسدت وسالت كالماء

وإن معاني هذه المفردات تدل بإجماعها على أن لكلمة « العرب » ومشتقاتها ومسمياتها صلة بالماء الكثير الصافي ، وليس من المقبول أن يطلق العرب على هذه المعاني كلها كلمة لا تدل مادتها في اللغات السامية إلا على الجفاف والصحراء كما زعم العبرانيون !!

- (1) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر 172 - 174 .
- (2) تاريخ العرب السابق ، لجواد علي ، الجزء الأول ، الصفحة 173 ، وكذلك تاريخ العرب مطسول ، لفيليب حتي ، الجزء الأول ، الصفحة 53 ، طبع بيروت سنة 1958 .
- (3) تاريخ العرب السابق ، الجزء الأول ، الصفحات ، الجزء الثاني الصفحة 189 ، طبع بغداد سنة 1956 .
- (4) تاريخ العرب السابق ، لجواد علي ، الجزء الأول ، الصفحات 98 ، 102 ، وكذلك مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الثاني السابق ، الصفحة 189 .

للباحثين كما سوف نعرضه بايجاز في البحث الخاص بها بعد هذا البحث .

رابعا - عدم استعراض نصوص العهد القديم « التوراة » فيما يتعلق بالدلالة على مفهوم كلمة «عربة» فيها وهي كثيرة . وكلها تنادي نداء صريحا بان كلمة «عربة» ومادتها انما تدل حصرا على «الارض الجيدة ذات الامطار والعيون والانهار» ، وانها تفيض لبنا وعسلا ، في ارض الكنعانيين الساكنين في ارض العربة (1) . وقد استخرجتها كلها من اسفار العهد القديم فبلغت العشرات (2) ، وهذا ما يبطل ما جاء في كتب اللغة العبرانية من ان كلمة «عربة» انما تدل على «الصحراء والجفاف والبدو والجذب والارض القفراء !!» اذ كيف يجوز للتوراة ان تصف مساكن الكنعانيين في «العربة» بالارض الجيدة ذات الامطار والانهار والعيون واللبن والعسل اذا كانت كلمة «عربة» في العبرانية لا تدل الا على الصحراء والجفاف والجذب !! . اللهم ان هذا ليهتان عظيم !! وقد ابي الله الا ان يفضحه وان يظهر بان معنى الكلمة في اللغة العبرية هو نفسه في اللغة العربية .

نصوص التاريخ القديم

واذا ثبت لدينا فيما تقدم من نظرية « كيتاني » العلمية ، ومن نصوص التوراة في « العهد القديم » ان معنى كلمة «عرب» ومادتها انما تدل على الماء الصافي الكثير ، والارض الجيدة الكثيرة الامطار والانهار ، وذلك تماما مثل ما جاء في معنى هذه المادة في اللغة العربية ، وعلى خلاف ما جاء في اللغة العبرانية المجردة من اي دليل علمي ، فلنستمع الآن الى نصوص التاريخ القديم من عهد الفراعنة واليونان والرومان ، وكلها تدل على بقايا رطوبة الجزيرة العربية حينئذ مما هو معروف قبل التاريخ ، على الرغم من اشتداد حلقات زحف الجفاف على الجزيرة الذي كان قد بدأ قبل ذلك بالآلاف السنين ، ثم ما زالت حلقات تشتد يوما بعد يوم .

فلقد جاء في النصوص المصرية القديمة ما يثبت وجود اخشاب ضخمة في شبه جزيرة العرب ، وان المنطقة الواقعة بين « الملا » و « معون » او « معان » من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر من اراضي نمود قديما ، قد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالاشجار ، ولعل ذلك كله هو الذي حمل المصريين القدماء على ان لا يسموا بلاد العرب باسمها الخاص بها ، وانما سموها في كتاباتهم بـ « ارض الله » ، ووصفوها بنتاج اشجارها من البهار والتوابل (3) .

اما الروايات اليونانية والرومانية القديمة فكانت تقول صراحة بوجود انهار طويلة في بلاد العرب (4) .

— فان هيرودوت (ابا التاريخ وقد زار بلاد العرب بنفسه) قد ذكر خبر نهر في بلاد العرب دعاه « كورس » ، وقال عنه انه من الانهر العظيمة ، وانه كان يصب في البحر الاحمر ، وان ملك العرب قد كان عمل على جلب المياه من هذا النهر العظيم بثلاثة انايب من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات ، تمتد الى الصحراء على مسيرة اثني عشر يوما من النهر ، فتصب في مواضع منقورة تستعمل لخزن المياه .

— وكذلك ذكر « بطليموس » اسم نهر عظيم سماه « لار Lar » وقال انه ينبع من منطقة «نجران» ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقا بلاد العرب حتى يصب في الخليج الفارسي .

وهكذا فقد تصافرت ايضا الاخبار القديمة لتدعيم حقيقة ما قد كانت عليه بلاد العرب من انواء رطبة وامطار وانهار ، كما جاءت في معنى ذلك نظرية كيتاني ، وكما دعمها المعنى اللغوي لكلمة «عرب» ومادتها في اللغة العربية واللغة العبرانية كما اثبتنا تحقيقه اعلاه .

في نصوص القرآن والسنة

والآن ناتي في آخر المطاف من هذا البحث السريع الجديد الى معجزة الاخبار في ذلك ، وهي

- 1 انظر سفر الخروج ، الاصحاح الثالث ، الفقرتين 7 - 8 ، وكذلك سفر التثنية ، الاصحاح الحادي عشر ، الفقرة الثلاثين .
- 2 انظر كتابي « المدخل الى التاريخ العام للقانون » ، الطبعة الثانية سنة 1963 ، الصفحة 578 .
- 3 تاريخ العرب ، لجواد علي ، الجزء الاول ، الصفحتان 102 ، 105 ، وكذلك مقدمة في تاريخ الحضارات ، لطف باقر ، الجزء الثاني ، الصفحة 92 .
- 4 تاريخ العرب السابق ، الجزء الاول ، الصفحة 189 .

وينفق مع نص الآية السابقة من كثرة
الامطار والانهار قديما في شبه جزيرة العرب ، ما جاء
في صحيح مسلم عن ابي هريرة رضى الله عنه انه قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة
حتى يكثر المال ويفيض ، وحتى يخرج الرجل بزكاة
ماله فلا يجد احدا يقبلها منه ، وحتى تعود ارض
العرب مروجا وانهارا » . ففي قوله عليه الصلاة
والسلام « حتى تعود » صراحة جازمة ايضا بما كان
في جزيرة العرب قديما من مروج وانهار لكثرة الامطار،
وانها ستعود مروجا وانهارا .

وقد نقل هذا الحديث ايضا الامام احمد في
مسنده مبتدئا بلفظ : « لا تقوم الساعة حتى تعود
ارض العرب مروجا وانهارا ... » ، وكذلك رواه
الحاكم في المستدرک على الصحيحين ، وكذلك صاحب
كنز العمال .

الخاتمة

وبالاشارة الى اصول هذين المبحثين
الاخيرين من نصوص القراءان والسنة الكثيرة مما لا
يتسع المقام لاكثر منه ، تكون :

اولا - قد اثبتنا على آخر الادلة في هذه الدراسة
الجديدة حول معنى كلمة « العرب » وجميع مادتها ،
وانها الماء الكثير الصافي خلافا لما زعمه المبرانيون
في معاجمهم من ان مادة الكلمة تعني الصحراء والجفاف
كما نقله عنهم المستشرقون اليهود ، وكما اثبتنا كذبه
بنصوص توراتهم المعروفة « بالمعهد القديم » .

ثانيا - تكون ايضا قد قضينا على المشكلة التي
اثارها المستشرقون اليهود امام الجزم العلمي بان
الحضارة الانسانية الام انما نشأت من جزيرة العرب ،
ومنها انتشرت في بلاد الرافدين في العراق ، وفي وادي
النيل في مصر على ايدي الهجرات العربية القديمة فيما
قبل التاريخ وبعدها ، من عهد قوم عاد « التي لم يخلق
مثلها في البلاد ، وعمود الذين جابوا (قطعوا) الصخر
بالواد ، وفرعون ذي الاوتاد (الاهرامات) » .

ونرجو ان تكون كلمتنا هذه الوجيزة في
بحثها خير باعث للقارئ العربي الكريم على العمل
لتصحيح التاريخ وتنقيته من كثير من افلاط
المستشرقين اليهود الذين كان معظمهم حربا ثقافية
علينا ، قبل ان تكون صهيونية اليوم حربا سياسيا
واستعماريًا .

نصوص القراءان والسنة التي لا تدع بعد ذلك شكًا
فيما نقلناه عن انواء جزيرة العرب فيما قبل التاريخ ،
وان جزيرة العرب كانت ذات انواء رطبة ، وسماء
كثيرة الامطار ، وارض كثيرة الانهار .

والمعجزة في هذه النصوص انها تدعم منذ نحو
اربعة عشر قرنا وبكل صراحة تلك البحوث والاتجاهات
التي انتجتها الدراسات العلمية الحديثة ، تلك
الدراسات التي لم يكن من الممكن لها ان تقوم في تلك
المصور ، ومن قبل امة امية حين نزل عليها القراءان
المعجز في كل شيء .

اما نصوص القراءان الكريم فقد قاربنا
نحوها من اربعين آية ، وجاءت كلها في معرض التذكير
للعرب في عهد الرسول العربي العظيم محمد عليه
الصلاة والسلام ، والدعوة الى الانعاط بمن تقدمهم من
الاقوام اصحاب المياه والجنان والممران والقوة والاثارة:
— من قوم عاد واهل سبا في اليمن وما حولها من
جنوبي شبه الجزيرة العربية ، وخاصة قوم عاد من
العرب البائدة ، والذين كانوا اول الخلفاء لقوم نوح بعد
كارثة الطوفان (سورة الاعراف ، الآية 69) .

— وكذلك قوم ثمود في شمال شبه جزيرة العرب
ومطالع بلاد الشام ، والذين كانوا اول الخلفاء لقوم عاد
بعد ان ابادهم الله (سورة الاعراف ، الايات 72 - 77)

ونكتفي هنا وفي هذا البحث الوجيز بنقل
آية واحدة من القراءان الكريم ، وهي الآية السادسة
من سورة الانعام ، اذ فيها كل ما نريده من صراحة
القول ، وقطعية الدليل ، حينما خاطب العرب في عهد
ظهور الرسالة الاسلامية ، وتذكيرا لهم بمن قبلهم من
الاجداد في سالف الازمان حين عصوا الله فاهلكهم ،
فقال في ذلك : « ألم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن،
مكناهم في الارض ما لم يمكن لكم ، وارسلنا السَّمَاءَ
عليهم مدرارا ، وجعلنا الانهار تجري من تحتهم ،
فاهلكناهم بذنوبهم وانسانا من بعدهم قرنا آخرين » .

ففي ذلك صراحة ليس بعدها صراحة في وجود
الاجواء الممطرة والانهار لدى سكان شبه جزيرة العرب
القدماء ، كما قد يبرهن عليه البحثة كيتاني بوسائل
العلم الحديث ، مما قد تفسر مع هلاك اولئك الاقوام ،
وهو كما يبدو من اعظم اسباب التمكن لاولئك الاقوام
في الارض العربية ، وللحضارة الانسانية الام الاولى
فيها مما لم يكن للعرب فيما بعد ، وخاصة في عهد
الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيث كان الجفاف قد
استولى على الجزيرة العربية في معظمها .